الفناء الكبير والموت الاسود
فى القرن الرابع عشر الميلادى
دراسة مقارنة بين الشرق والغرب

د. على السيد على محمود
مدرس تاريخ العصور الوسطى
بكلية التربية بالفيوم ـ جامعة القاهرة

شهدت البشرية على مر عصورها التاريخية كثيرا من الأوبئة ، لكن ينفرد الطاعون الذى انتشر فى الفترة من ١٣٤٧ ـ ١٣٥١ م بأنه أكثر تلك الأوبئة التى عرفتها البشرية فتكا وهولا ، وهو الذى أطلق عليه المؤرخون فى الشرق العربى اسم « الفناء الكبير » أو « الفصل الكبير »، والذى امتد أثره بحيث عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وأنشب مخالبه فى جميع أجناس البشر ، بل وامتد أثره حتى شمل أسماك البحر وطير السماء ووحش البر[1] ، وأطلق عليه المؤرخون فى الغرب الأوروبى اسم « الموت الأسود » « The Black Death » تمييزا له عن غيره من الطواعين التى عرفها الغرب الأوروبى ، والسبب فى تلك التسمية راجع الى ظهور بقع سوداء على جسم المريض نتيجة

---

(١) ابن الوردى : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٤ ، أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠ـ٢٢ ، المقريزى : السلوك ، ج ٢ قسم ص ٧٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ ـ ٢١١ ، السيوطى : ما رواه الواعون فى اخبار الطاعون ، ص ٨٩ .

لحدوث نزيف تحت الجلد ، فضلا عن أنه راح ضحيته ما يقرب من ٥٠٪ من السكان[٢] حسب الاحصائية المرفقة بآخر هذا البحث .

ومعروف أن العصور الوسطى هى عصور الايمان ، وأنها تعكس لنا عقلية المعاصرين فى تفسيرهم لكثير من الأزمات الصعبة التى تنزل بهم تفسيرا قدريا أو تفسيرا طبيعيا . وعلى هذا الأساس فقد فسره بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين له على أنه غضب من الله أنزله عليهم لما اقترفوه من آثام ، بينما فسره البعض الآخر منهم على أنه نهاية العالم[٣] . كما فسره فريق ثالث — وبخاصة من المشتغلين بعلم الفلك — على أنه راجع لأسباب فلكية ، حيث يذكرون أن خسوف القمر ، أو التقاء بعض الكواكب مثل المريخ وزحل تحت ظروف فلكية معينة يؤدى الى تسمم الهواء الذى يؤدى الى حدوث ذلك الوباء ، وهنا واضح تأثر علماء الغرب الأوروبى فى تلك الفترة بكتابات « ابن سينا » فى الطب والتى ترجمت الى اللاتينية ، وكتابات « جالينوس » التى وصلت اليهم عن طريق علماء العرب ، وربما انتقلت اليهم أيضا بعض كتابات علماء مسلمى الأندلس الذين قالوا بأثر العوامل الفلكية فى انتشار الطاعون[٤] . كذلك يبدو لنا أن الغرب الأوروبى قد تأثر بما ساد فى الشرق العربى من شيوع آراء أرسطو ، والتى ترجمت الى اللاتينية عن طريق العرب ، بأن التقاء كل من كوكبى زحل وعطارد يسبب الموت وتناقص أعداد السكان[٥] . كذلك من بين التفسيرات التى ذكرها الغربيون المعاصرون أن الزلازل التى حدثت سنة ١٣٤٧ م أدت الى

---

(2) Gottfried : The Black Death, p. XVI ; Hirst : The Conquest of Plague. P. 32.

(3) Coulton : The Black Death. P. II; Hirst : Op. Cit., pp. 11 — 17.

(4) Campbell : The Black Death, pp. 33 — 39.

(5) Ibid : op. cit., pp. 40 — 43.

تلوث الوهاء بسبب خروج الغازات السامة وانتشارها عبر الوديان والمدن ، وقتلها لكثير من الناس وبذلك انتشر الطاعون فى كل أنحاء الغرب الأوروبى فى تلك الفترة[٦] .

أما فى الشرق العربى فقد كانت هناك عدة تفسيرات لأسباب ذلك الطاعون بالاضافة الى الأسباب الفلكية ، منها أنه حدث بسبب تلوث الهواء ، أو نتيجة لحدوث العفن الذى يضر الانسان والحيوان والمياه والنبات ، ولقد اعتمد الكتاب العرب فى تفسيرهم لظاهرة العفن هذه على كتابات جالينوس وأبو قراط ، حيث كانت دراسة كتبهما دعامة الدراسة الطبية فى تلك العصور[٧] . الا أننا نلاحظ أنهم اختلفوا فى تفسيرهم لأسباب هذا التلوث ، فابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م) وقد كان معاصرا لهذا الوباء ، ومن بعده المقريزى (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) وابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) يذكرون أن السبب فى هذا التلوث راجع الى تعفن جثث سكان بلاد الامبراطورية المغولية الممتدة من الصين جنوبا الى البحر الأسود وبحر قزوين وحوض الفولجا شمالا ، حيث هلكوا بأجمعهم سنة ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م ، وحملت الريح نتنهم الى البلاد[٨] أما ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م) فقد فسر السبب فى هذا التلوث بسبب كثرة العمران وما ينجم عنها من كثرة الرطوبات الفاسدة[٩] . كذلك فسر لنا ان خاتمة الأندلس (ت ١٣٦٣ م) أن السبب فى تلوث الهواء راجع الى اختلاف الفصول من حيث درجة الحرارة والرياح والأمطار[١٠] .

---

(6) Ibid : p. 44.

(7) Dols : The Black Death, p. 85.

(٨) تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ ، السلوك : ج ٢ ، قسم ٣، ص ٧٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ .

(٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(10) Dols : op. cit., p. 93.

كذلك تجب الاشارة الى أنه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد عرف المسلمون سببا آخرا فى انتشار الطاعون وهو العدوى ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » وفى حديث آخر : « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بهـا فلا تخرجوا فرارا منه »[11] • وواضح أن الهدف من الحديث ليس هـو الاستسلام للمرض كما يزعم بعض المؤرخين الغربيين ، بل هو فرض نوع من الحجر الصحى لمنع انتشار المرض عن طريق العدوى • كمـا كانت فكرة العدوى هذه معروفة لدى كثير من المؤرخين العرب الذين عاصروا الطاعون ، أمثال لسان الدين بن الخطيب (ت ١٣٧٤ م) والذى عاصر ذلك الطاعون فى بلاد الأندلس ، وذكر لنا أن من أسباب انتشاره العدوى التى نجمت عن وصول بعض أناس من منطقة انتشر بها ذلك الطاعون ، بينما ظلت بعض المناطق المنعزلة بمنأى من الطاعون ، مثـل البدو فى شمال أفريقية والذين بقوا دون أن يصيبهم أى مرض[12] • هذا بالاضافة الى ما تشير اليه بعض المراجع الحديثة من أن النـاس فى تلك الفترة كانوا يفسرون السبب فى حدوث ذلك الطاعون وغيره من الطواعين من وجهة نظر دينية وأخلاقية بحتة ، فيرجعون السبب فيهـا الى غضب الله سبحانه وتعالى من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور وسيادة الظلم[13] الا أننا لم تصادفنا فى المصادر المعاصرة أية اشارة لهذا التفسير فيما يتعلق بهذا الطاعون بوجه خاص وان كانت

---

(١١) صحيح البخارى ، ج ٣ ، ص ١٤ ، ١٥ ، ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٤٠ — ٤١ .

(12) Dols : op. cit., p. 93.

(١٣) د. قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٦٧ — ٦٨ .

هناك اشارات تتصل ببعض الطواعين الأخرى والتى حدثت بعد ذلك الطاعون[١٤] .

كذلك يبدو لنا بما لا يدع مجالا للشك أن المؤرخين العرب أدركوا أن الأشخاص يختلفون من حيث المناعة الطبيعية الكامنة فى أجسامهم ، والتى ذكرها لنا ابن خاتمة الاندلس ، والذى نادى بأ نالأشخاص قليلى المناعة يجب أن يحتاطوا جيدا فىطعامهم وشرابهم وحتى فى نومهم[١٥] . كما أنه من الملاحظ من خلال استعراض كتابات من كتبوا عن هذا الوباء سواء فى الشرق العربى أم الغرب الأوروبى ، أنهم ركزوا بشكل أو بآخر على عوامل طبيعية أو فلكية نجم عنها تلوث فى الهواء أدى الى حدوث هذا المرض ، ولكن من الناحية الطبية ، فقد أثبتت الأبحاث الحديثة ، والتى أجريت فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، أن هذا الوباء متوطن فى شبه القارة الهندية ، وفى الشرق الأقصى ، وبعض أجزاء من أفريقيا ، وأن العدوى الأولى تحدث فى الفئران والقوارض ، وعندما يتفشى فيها المرض تموت أعداد كبيرة من الفئران ، وعندئذ تنتقل البراغيث التى تعيش على صدور هذه الفئران الى الانسان لتتغذى على دمه حاملة معها الميكروبات المسببة له ، وعندما تلدغ هذه البراغيث الانسان تنتقل الميكروبات من البراغيث اليه ، ثم تتكاثر وتغزو الغدد الليمفاوية التى سرعان ما تتورم وتتقيح مع حدوث ارتفاع فى درجة الحرارة لدى الشخص المصاب ، ويسمى هذا بطاعون الغدد . يحدث بعد ذلك انتشار البكتيريا فى الدم حيث تسبب تسمما حادا . يصحبه حدوث نزيف تحت الجلد ، وفى هذه المرحلة يسمى بطاعون الدم ، وعادة ما تنتقل البكتيريا بعد ذلك الى الرئتين مسببة الطاعون الرئوى وهو أخطر مراحل المرض ، حيث تنتشر العدوى بعد ذلك اما عن طريق

---

(١٤) ابن الوردى : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص ٢٠ ، المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٨٠ .

(15) Dols : op. cit., p. 63.

لفرازات الجهاز التنفسى للشخص المصاب بواسطة الهواء[١٦] أو عن طريق نقل العدوى من انسان لأخر بواسطة بعض الحشرات مثل البراغيث والبعوض والذباب[١٧] وقد تنتقل العدوى من الفئران المصابة بالطاعون الى كثير من الحيوانات والطيور والتى تصبح سيطا ملائما لنقل العدوى للانسان[١٨] وهذا يفسر لنا ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن الطاعون أصاب حتى الحيوانات من قطط وكلاب وغيرها وحتى الحيوانات البرية ، كذلك فان المناطق التى تموت بها الفئران بأعداد كبيرة لتفشى الطاعون فيها تصبح ملوثة بميكروبات المرض والتى تشكل بيئة صالحة لتكاثر تلك الميكروبات ، وبذلك تصبح جحور الفئران أو الأرض التى ماتت عليها مصدرا لانتقال البكتيريا الى الكائنات الحية من انسان وحيوان وطيور واصابتها بالطاعون ، كذلك فان استخدام الأشياء الخاصة بالمريض من ملابس وغيرها كفيل بنقل العدوى[١٩] .

ومن الطبيعى ألا نتوقع من أطباء العصور الوسطى أن يتعرفوا على أصل هذا المرض ، بالرغم من أن « ابن سينا » لاحظ أنه من بين علامات حدوث الطاعون أن تهرب القوارض التى تعيش فى باطن الأرض، مثل الفئران وغيرها من جحورها الى سطح الأرض وتتعثر فى حركتها وكأنها ثملة ، وكذلك نقل عنه كثير ممن كتبوا من المعاصرين لهذا الطاعون سواء فى الشرق العربى أم الغرب الأوروبى[٢٠] .

وعن تفسير السر فى تفضيل البراغيث الانتقال من الفئران — عقب موتها لتفشى الطاعون فيها — الى الانسان أكثر من غيره من الكائنات

---

(16) Abla EL Mishad : Manual of Practical Microboiolgy, p. 126; Campbell op. cit., p. 34.

(17) Yehia EL Batawi : Manual of Microbial. pp. 70 — 71; Hirst : op. cit., p. 161 .

(18) Gottfried : op. cit., p. 3.

(19) Ibid, p. 3; Hirst : op. cit., pp. 158 — 159.

(20) Campbell : op. cit., p. 34.

الحية الأخرى فان ذلك ربما راجع بالدرجة الأولى الى التقارب الشديد فى درجة حرارة الانسان مع الفئران ، فضلا عن طبيعة دم الانسان نفسه بما فيه من مواد بروتينية ضخمة لذا يعتبر بمثابة وجبة شهية لتلك البراغيث ، أضف الى ذلك أن التجارب العلمية الحديثة غالبا ما تجرى على الفئران قبل تعميم استخدامها على الانسان بما يفيد ذلك التقارب الشديد .

أما عن أعراض ذلك الوباء فان المؤرخين العرب قد عرفوا تلك الأعراض بما يتفق مع الطب الحديث — على الرغم من أن كلا من جالينوس وابن سينا لم يعطيانا وصفا لأعراضه لأنهما لم يشاهداه فى حياتهما — وهذه الأعراض هى حدوث ارتفاع فى درجة الحرارة لدى الشخص المصاب ، مع ألم فى الأجناب أو الصدر ، وسعال مع صعوبة فى التنفس ، واضطراب فى النبض ، وتقيىء الدم ، وظهور انتفاخ فى الغدد الليمفاوية خلف الأذن أو فى أماكن أخرى مثل تحت الابط أو فى منطقة الأفخاذ(٢١) مع حدوث بثرات سوداء متقيحة مكان لدغة البرغوث، وحدوث نزيف تحت الجلد(٢٢) كما تجب الاشارة الى أن المؤرخين العرب فرقوا بين طاعون الغدد الليمفاوية والطاعون الرئوى ، ولاحظوا أن الطاعون الرئوى هو الأكثر فتكا والأسرع ، كما أنهم أظهروا دراية وخبرة بمراحل حدوث الأعراض المختلفة ، وربطوا بينها وبين مراحل تطور المرض داخل جسم الانسان بعكس مؤرخى الغرب الأوروبى(٢٣)

---

(٢١) ابن الوردى : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٥ — ٣٣٤ ، المقريزى : السلوك ، ج ٢، قسم ٣ ، ص ٣٢١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤ .

(٢٢) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٤٠ ،
Campbell : op. cit., pp. 78 — 80.

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١ ،
Gottfried : op. cit., p. 8.

والذى يذكر أحد مؤرخى الغرب المحدثين أن عذرهم فى هذا راجع الى أن المرض كان جديدا بالنسبة لهم ولم يكن معروفا، فهو من الأمراض المتوطنة فى الشرق الأقصى ، وانتقل فجأة الى أرض بكر لم تعتده[٢٤] الا أننا نقول أن هذا الكلام مبالغ فيه ولا أساس له من الصحة ، فلم يكن الطاعون مرضا جديدا على الغرب الأوربى ، حيث سبق أن عرف الغرب الأوربى عدة طواعين نذكر منها الطاعون الذى حدث فى عهد الامبراطور « جستنيان » سنة ٥٤١ م ، والذى أطلق عليه اسم هذا الامبراطور ، والذى يقال أنه أتى من شرق أفريقيا عبر نهر النيل ، ثم انتقل الى حوض البحر الأبيض المتوسط ، كذلك فى الفترة من سنة ٥٥٨ — ٥٦١ م ظهر الطاعون مبتدئا بمصر ، وانتشر فى حوض البحر المتوسط الشرقى ثم القسطنطينية ، وبعد ذلك انتقل الى الغرب الأوروبى عبر موانى ايطاليا وغاليا « فرنسا » ، كما تكرر حدوثه فى الفترة ما بين سنتى ٥٨٢ م — ٥٩١ م ، وهذا الأخير قد بدأ انتشاره من أسبانيا الى جنوبى فرنسا وايطاليا[٢٥] . ويتضح لنا مدى ازدهار الطب العربى فى العصور الوسطى من أنه فى الوقت الذى شخص فيه الأطباء العرب هذا الوباء ، وعرفوا الفارق بين أنواعه وأعراض كل منها، لم يعرف أطباء الغرب الأوروبى الكثير عن هذا الوباء ، رغم أن أعراضه كانت واضحة سواء فى ظهورها أم فى مراحل تطورها والتى لم تكن تعنى سوى الموت لأبناء الغرب الأوربى آنذاك[٢٦] .

أما عن مقاومة هذا المرض ، ففى الغرب قام كثير من المسئولين فى المدن بوجه خاص بتطهيرها مما بها من قاذورات ، وفى بعض المدن تم منع المرضى والمصابين من دخولها ، كذلك اعتقد البعض أن الاعتدال

---

(24) Campbell : op. cit., pp. 81 — 84; Coulton : op. cit., p. 8.

(25) Gottfried : op. cit., pp. 10 — 11.

(26) The Decameron, pp. XXIII — XXIV.

فى تناول الطعام وتجنب كل افراط سوف يكون مفيدا بلاشك فى تجنب الاصابة بهذا المرض ، بينما رأى البعض الآخر أن يحبسوا أنفسهم داخل منازلهم ليكونوا فى شبه عزلة تامة عمن حولهم ، ووجد فريق آخر أن خير وسيلة للوقاية من الوباء هى أن يستمتعوا بالحياة وأن يشبعوا كل شهواتهم ، كذلك وجد فريق آخر وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، وهم الذين لم يسرفوا فى تناول الطعام والشراب ، ولم يحبسوا أنفسهم ، وعاشوا على قدر الكفاية ، وخرجوا ومعهم الزهور والروائح العطرية فى أيديهم ، بينما لجأ فريق آخر الى أن يهيموا على وجوههم هربا من المناطق التى ينتشر فيها الى مناطق أخرى ، ولم يهتموا بشىء سوى النجاة بأنفسهم لأنهم اعتقدوا أن لا حياة لهم بين جدران المدن والمنازل، ومع هذا لم يبق كثير منهم على قيد الحياة[٢٧] • أضف الى ذلك ما يرويه لنا الراهب الصقلى ميخائيل البيازى والذى كان معاصرا للطاعون ، من أن سكان مدينة مسينا Messina وهى الميناء الرئيسى آنذاك لجزيرة صقلية ، خرجوا الى كنيسة العذراء التى تبعد ستة أميال خارج المدينة ، وهناك خروا ساجدين أمام صورة السيدة العذراء باكين طالبين العون ، وأخذوا الصورة ليدخلوا بها المدينة على أمل أن تنجيهم من هذا الوباء أو تبعده عنهم[٢٨] كذلك فرضت بعض المدن حجرا صحيا ونظاما للوقاية، حيث خصصت بعض السفن لنقل جثث الموتى الى بعض الجزر النائية لدفنها بها على أعماق كبيرة من سطح الأرض ، كما فرض أهلها حجرا صحيا على السفن القادمة اليهم لمدة أربعين يوما حتى يتم لهم التأكد من عدم وجود مرضى بها[٢٩] • كما يذكر لنا أحد المعاصرين من غاليا « فرنسا » أنهم لجأوا الى اشعال النيران فى مواقد خاصة أعدت

---

(27) Coulton : op. cit., pp. 12 — 15, Ziegler : The Black Death pp. 52 54.

(28) Coulton : op. cit., pp. 22 — 26 .

(29) Gottfried : op. cit., p. 48; Ziegler : op. cit., p. 40.

لذلك لتطهير الهواء ، أو وضع كثير من الزهور وكذلك بعض الاعشاب العطرية لاحراقها لتنقية الهواء ، فضلا عن أن بعض المعاصرين أوصوا بضرورة احراق خشب اللوز مختلطا بالملاط ثم صحنه مع ماء الـورد الدمشقى ورش هذا الخليط فى أركان المنازل والحجرات ، وكذلك رش أرضيتها بالخل وماء الورد ، مع وضع كثير من النباتات العطرية ، فضلا عن أن بعضهم كانوا يرشون أنفسهم بالخل باسـتمرار وماء الـورد والينفسج ، وهنا واضح تأثير الشرق فى الغرب[٣٠] كذلك نفذ كثير من المعاصرين نصيحة « ابن سينا » بضرورة اختيار الأطعمة الجيـدة والابتعاد عن الأطعمة الفاسدة ، وعدم الشبع مع الاقلال من اللحـوم والخضروات سريعة التلف ، وكذلك الألبان والأسماك ، وعدم تنـاول الأطعمة المجففة[٣١] . فضلا عن أن بعض المدن وضعت بعض التشريعات لمقاومة هذا المرض ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مدينة بستويا Pistoia فى ايطاليا ، والتى نصت التشريعات فيها على عدم قيام أهلهابزيارة المدن المجاورة والتى انتشر فيها الطاعون ، ومن يقم من أهلها بمثل تلك الزيارة كان يمنع من دخول المدينة ، كذلك منعت استيراد بعض البضائع ، كما وضعت أسواق الطعام والشراب تحت اشراف دقيق ، وتم تحديد عدد من يخرجون لتشييع الجنازات بحيث اقتصر على أقـرب أقارب الموتى ، كما وضعت بعض الشروط لتحديد مستوى دفن الموتى فى أرض المقابر ، وبعض التشريعات الخاصة بحفارى القبـور ، بأن يتم اختيار عدد محدد منهم للقيام بعملية الدفن ولم يسمح لغـيرهم بمزاولة هذا العمل ، فضلا عن أن بعض التشريعات نصت على عدم ترك الخنازير والماعز ترعى فى شوارع المدينة ، وكذلك عدم القاء القاذورات والفضلات من النوافذ ، بالاضافة الى لجوء الكثيرين من أبناء الغـرب الأوربى الى الكنائس والأديرة وقيامهم بالصلوات والابتهـالات فى

(30) Campbell : op. cit., pp. 39 — 73; Dols : op. cit. p. 97.

(31) Campbell : op. cit., p. 74.

شكل صلوات خاصة أو قداس عام متضرعين الى الرب أن يرفع عنهم وينجيهم من هذا الوباء[٣٢] .

أما عن وسائل مقاومة هذا الوباء فى الشرق العربى فهناك تشابه كبير فى بعض وسائل المقاومة ، من ذلك تطهير البلاد من الحيوانات وبخاصة الكلاب اما لنجاستها أو بسبب امكانية نقلها العدوى للسكان وذلك عندما وردت اليهم الأخبار عن انتشار ذلك الطعون[٣٣] الى جانب خروج الناس فى جماعات الى المساجد للتضرع الى الله والدعاء يسألونه فى رفع الوباء عنهم[٣٤] . ويبدو أن الدعاء الى الله سبحانه وتعالى كان أول عمل قاموا به ، وذلك لاعتقادهم فى أن الدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء يدفعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ويرفعه ، أو يخففه اذا نزل، وهو سلاح المؤمن[٣٥] . كذلك يمكننا القول أنه رغم معرفة الشرق العربى لضرورة الحجر الصحى — وكما سبقت الاشارة بذلك — منذ بداية العصر الاسلامى ، الا أن الناس فى ذلك الوقت لم يلجأوا الى فرض الحجر الصحى ، بل ان كثيرين منهم كانوا يهربون من الأماكن الموبوءة الى أماكن أخرى أملا فى النجاة ، كأن يفروا من المدن الى القرى أو العكس[٣٦] . هذا الى جانب ما جرت به عادتهم من صوم ثلاثة أيام ، وألا يطبخوا طعامهم فى الأسواق ، وعقب الصوم يجتمعون فى المساجد طوال الليل ما بين ساجد وداع ، ثم يصلون الصبح ويخرجون على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة وحتى اليهود والنصارى كانوا يخرجون بتوراتهم وانجيلهم ومعهم النساء والولدان[٣٧] . كما يذكر

---

(32) Ziegler : op. cit., pp. 45 — 61.

(٣٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣٤) نفس المصدر ، ج ١٤ ، ص ٢٢٦ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٠ ، المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٨٠ .

(٣٥) ابن قيم الجوزية : الداء والدواء ، ص ٧ .

(36) Dols : op. cit., p. 193.

(٣٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٠

لنا أحد المؤرخين المعاصرين أنه كان يتم اشعال النيران فى مواقد أعدت خصيصا لذلك فى بعض المدن مثل القاهرة عندما ينتشر الطاعون ، حيث كان يتم اشعال تلك النيران عند تلال المقطم لتنقية الهواء مما به من آثار الوباء[٣٨] .

أما عن طرق العلاج فى الغرب الأوربى ، فيبدو لنا أن كل شخص هناك كان يجرب أى شىء بحثا عن العلاج وبخاصة عندما لا يجدون من يصف لهم الدواء ، ويروى لنا أحد المشتغلين بالطب آنذاك أنه من وسائل العلاج التى كانت شائعة أن تخلط الأعشاب بقرون وحوافر الحيوانات، مع كبد ومخ الخيول ، والبغال والماعز والأرانب ، وتستخدم كعلاج لهذا الطاعون[٣٩] . كذلك استخدموا طريقة « فصد الدم » التى كانت شائعة عند العرب — والذين أدركوا أن أهم فائدة لها هى منع عملية نزف الأوعية الدموية بسبب التسمم الحاد — أو لتجديد الدم وامداد الجسم بدم نقى بدلا من الدم الملوث[٤٠] . كذلك قام الكثيرون منهم بشم خليط من الفلفل الأسود والأحمر والصندل معا ، كما لجأ البعض منهم الى رش مسحوق من الكبريت والزرنيخ على النار ، ومعروف أن الكبريت يقتل البكتيريا كما يقتل الفئران والبراغيث ، بينما لجأ البعض الآخر الى غسل وجوههم وأيديهم بالخل من حين لآخر أو بماء الورد[٤١] .

وواضح من سبل العلاج هذه أنها اما مجرد محاولات شخصية أو مقتبسة من الشرق العربى وذلك راجع لعدة اعتبارات منها أن معظم أبناء

---

(33) Dols : op. cit., p. 79.

(٣٩) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٤ .

(40) Campbell : op. cit., pp. 29 — 73; Ziegler : op. cit. p. 74.

(41) Ziegler : op. cit., pp. 74 — 75.

الغرب الأوربى قد اتفقوا تماما مع رأى جالينوس حول هذا المرض بأنه لا شفاء منه ، وبذلك ركزوا على وسائل الوقاية أكثر من العلاج[٤٢] فضلا عن اعتقادهم بأن جالينوس قد قال الكلمة الأخيرة فيما يختص بهذا الوباء ، وأن أى أبحاث أخرى لم تعد ضرورية ، كما أن الطب قد خضع لاشراف الكنيسة وبما يتفق مع أهدافها ولخدمة أغراضها الدينية، وغالبا ما كانت معلومات الطب قاصرة على قراءات فقط من خلال المترجمات ، فضلا عن أن الجراحة كانت أفقر كثيرا بالنسبة للطب ، وظل الحال كذلك حتى القرن الخامس عشر الميلادى[٤٣] .

أما عن طرق العلاج فى الشرق فبالرغم مما تشير اليه بعض المصادر بأنه « لم يحتج أحد فى هذا الوباء الى أشربة ولا أدوية ولا أطباء ، لسرعة لموت »[٤٤] الا أنه كانت هناك محاولات للعلاج ، وان دلت على شيء فانما تدل على مدى تقدم مستوى الطب لدى العرب بالنسبة للغرب الأوروبى ، وكذلك تدل على فهم ودراية بكل ما استخدموه . من ذلك أنه كان يوصى باستئصال أورام الطاعون اذا أمكن ذلك ، مع ضرورة مسح تلك الأورام بقطعة من الاسفنج بها ماء وخل ، ومعروف أن الخل كحامض اذا تخلل تلك الأنسجة المصابة بالبكتيريا المسببة للطاعون ، والتى تتكاثر فى الجسم لطبيعته القلوية ، فان الخل يعمل نوعا من التعادل ، ويخلق بيئة غير صالحة لتكاثر البكتيريا ، كذلك كان المعاصرون ينصحون بتناول بعض الأطعمة مثل العدس بالخل واللحوم المطهية فى الخل[٤٥] كما كان يوصى بعملية « فصد الدم » والتى تؤدى الى تقليل نسبة الدم الملوث ، وتجديد الدم

---

(42) Campbell : op. cit., pp. 85 — 86.

(43) Ziegler : op. cit., pp. 69 — 72.

(٤٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٨١ ، ابن تغرى بردى: النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٦ .

(45) Dols : op. cit., pp. 106 — 107.

فضلا عن تنشيط الشرايين ، هذا بالاضافة الى عملية « الحجامة » وهى امتصاص الدم « بالمحجم » كعلاج للمصابين بالطاعون ، وفى هـذه الحالة كان يتم اعطاء الشخص أولا مقدار أوقيتين من كل من شراب الخل وشراب الورد ، ثم تجرى له هذه العملية ، كذلك كان يوصى بالاكثار من العصائر وبخاصة عصائر الفاكهة الباردة والعطريات مثل ماء الورد والكافور والصندل باعتبارها مقوية للقلب[٤٦] . بالاضافة الى أن الكثيرين من المعاصرين كانوا يفضلون استخدام البنفسـج حيث كان يدهن به الجسم كله ، وربما كان السبب فى كثرة استخدامه راجع لأثره الحامض والذى توصلوا اليه من خلال خبرتهم اليومية[٤٧] . كذلك أوصى المعاصرون مرضى الطاعون بالاقلال من تناول الأطعمة ، وعدم الأكثار من الرياضة والاستحمام والأكثار من السكون والدعة لعدم ارهاق القلب[٤٨] . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن الناس فى الشرق العربى لم يستسلموا كلية انتظارا لارتفاع الطاعون عنهم تلقائيا ، وكما حدث فى الغـرب الأوروبى فى كثير من الأحيان ، انما حاولوا حسبما أتيح لهـم من معلومات طبية ، لأنهم لم يكونوا قد توصلوا بعد الى ما توصل اليه الطب الحديث من مركبات السلفا التى تقضى على ذلك الطاعون قضاءا تاما .

أما عن مصدر هذا الوباء فان المصادر العربية المعاصرة قد أشارت اليه بشكل واضح ، فابن الوردى — وهو معاصر — يذكر لنا أنه ابتدأ من « الظلمات » من خمس عشرة سنة متقدمة على التاريخ الذى عم فيه أقطار الأرض شرقا وغربا[٤٩] .

والمعروف أن المؤرخين والرحالة العرب قد أطلقوا على المنطقـة

---

(46) Ibid, pp. 105 — 107; Campbell : op. cit., pp. 87 — 88.

(٤٧) السيوطى : ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ، ص ٨٨—٨٩.

(٤٨) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٤٥ .

(٤٩) تاريخ ابن الوردى ، ص ٣٥٠ .

التى تشمل اليوم أجزاء من بلغاريا ورومانيا والمطلة على البحر الاسود، وروسيا الشمالية أرض الظلمة أو أرض الظلمات[٥٠] • كما أن « ابن كثير » ذكر أنه بدأ فى بلاد القرم ثم انتقل منها الى بلاد الافرنج ، حتى قيل ان أهل قبرس مات أكثرهم أو يقارب ذلك[٥١] وهو بذلك يتحدث عن المنطقة الجنوبية الشمالية من روسيا ، كذلك وردت اشارة لدى كل من المقريزى وابن تغرى بردى أن الطاعون ظهر فى بلاد أزبك ، أى بلاد مغول القفجاق شمالى البحر الأسود وبحر قزوين[٥٢] ومن هذا يتضح لنا أن المصادر العربية أجمعت على أن الطاعون ظهر أولا فى المناطق المطلة على البحر الأسود ، والتى كانت خاضعة آنذاك لحكم مغول القفجاق •

أما عن المصادر والمراجع الأوروبية ، فقليل منها يذكر لنا أنه حدث أولا فى بلاد الحبشة ، ثم امتد الى البلاد المجاورة ومنها الى مصر وبلاد الشام ثم انتقل من الشرق الى الغرب الأوربى[٥٣] ولكن الغالبية العظمى تذكر أنه حدث أولا فى مدينة كافا Caffa المطلة على البحر الأسود، والتى كانت من المراكز التجارية الهامة فى دولة مغول القفجاق ، وأقام بها الجنوية والبنادقة مراكز تجارية لهم لتجارتهم مع الشرق الأقصى ، والتى كانت ترد اليها عبر الطرق التجارية البرية الممتدة من جنـــوب آســيا[٥٤] • كذلك تذكر بعض المراجع الأخرى أنه فى الفتــرة من ١٣٣٠ م ــ ١٣٤٦ م فقد انتقلت أعداد من القوارض التى تعيش فى

---

(٥٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٣٨ ــ ٣٤٠ .

(٥١) البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

(٥٢) السلوك ، جـ ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٠ ــ ٧٧٣ ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٩٥ــ١٩٧ .

(53) Campbell : op. cit., p. 51.

(54) Hirst : op. cit., p. 11; Coulron : op cit., p. 9; Ziegler : op. cit., p. 40; Gottfried : op. cit., p. 36.

آسيا الوسطى الى أوروبا ونقلت معها العدوى الى الحيوانات المحلية ، ثم الى البشر بالتدريج ، وذلك عن طريق انتقال الفئران الآسيوية السوداء حاملة المرض مع المتاجر الشرقية القادمة الى الغرب الأوروبى[٥٥] . الا أننا نستطيع القول أنه قد يكون هذا أحد العوامل التى ساعدت على سرعة تفشى المرض فى الغرب الأوروبى ، ولم يكن الغرب الأوروبى هو مصدر العدوى الأول ، والدليل على ذلك ما رواه المؤرخ البيزنطى نيكفوروس جريجوروس Nicephoros Gregoras والذى نجا من ذلك الطاعون فى القسطنطينية ، حيث يذكر أن ذلك الوباء غزا بحر ايجه بعد حدوثه فى القسطنطينية ثم انتقل الى جزيرة رودس والجزر القريبة منها ثم الى الغرب ، وأن العدوى لم تقتصر على البشر فقط بل شملت كل الكائنات الحية من حيوانات وطيور وبخاصة قريبة الصلة بالانسان ، أى التى تعيش لديه أو يستخدمها مثل الكلاب والخيول والفئران[٥٦] . كذلك رسم لنا زيجلر Ziegler [٥٧] خريطة توضيحية يبين فيها تطور انتقال العدوى ، ومسار الطاعون فى كل أنحاء الغرب الأوروبى ، والتوقيت الذى وصل فيه الى كل بلد من بلدان أوروبا ، معتمدا فيها على ما ذكره المعاصرون من أقوال تؤيد ما جاء بالخريطة ، وهى مرفقة فى آخر هذا البحث .

وجدير بالذكر أنه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى أتيح للمدن الايطالية أن تهيمن على النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، نتيجة لاهتمامها بجغرافية حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما ساعدها على تسيير رحلات شبه منتظمة بينها وبين الشرق والغرب ، فضلا عن اصدار هذه المدن لعملتها الذهبية والتى فاقت ما كان معروفا فى العالم

---

(55) Gottfried : op. cit., p. 35.

(56) Ibid, p. 38.

(57) The Bl ack Death, pp. 106 — 107.

البيزنطى والاسلامى من عملات ، وذلك لثبات قيمتها وثبات نسبة الذهب فيها ، بالاضافة الى اعتماد البابوية على تلك المدن فى تحصيل الصدقات والعشور من أنحاء الغرب الأوروبى ، فضلا عن قيامها بالعمليات المصرفية حيث أصبحت لها مراكز تجارية فى كل من وسط وشرق أوروبا ، كذلك تحقق لها السيطرة على التجارة بين البحرين الأسود والأبيض ، حيث سمحت لها الامبراطورية البيزنطية — باعتبار هذه المدن حلفاء لها — بانشاء مستعمرات تجارية حول البحر الأسود منذ سنة ١٢٠٤ م ، وبقيام امبراطورية المغول أتيح للمدن الايطالية الاستفادة من طرق التجارة الممتدة من الصين الى الشواطىء الروسية على البحر الأسود ، كما أنه فى سنة ١٣١٥ م وصلت سفن كل من جنوة والبندقية الى الموانى الشمالية للمحيط الأطلسى الأوروبية مما ساعد على ربط هذه الموانى بموانى البحر الأبيض المتوسط[٥٨] . هذا بالاضافة الى أن المجاعات التى حدثت عام ١٣٤٠ م فى أوروبا أدت الى ارتفاع كبير فى الأسعار ، وساعدت فى نفس الوقت على انتشار البيوت المالية الايطالية فى كل الغرب الأوروبى ، وانتشار النشاط الايطالى فى موانى أوروبا[٥٩] . لذا لا غرابة فى أن يكون الايطاليون هم الذين نقلوا هذا الوباء من شواطىء البحر الأسود الى أنحاء الغرب لأوروبى والشرق على السواء ، وتذكر المصادر الأوروبية المعاصرة أن تجار جنوة والذين كانت لهم مراكزهم التجارية فى مدينة كافا Caffa نقلوا معهم هذا الوباء عن طريق سفنهم التجارية عبر حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومن الموانى الساحلية انتشر هذا الوباء الى المناطق الداخلية عن طريق الأنهار والطرق التجارية البرية ، من ذلك أن الراهب ميخائيل البيازى

---

(58) Lopez : The Commercial Revolution of the Middle Ages pp. 106 — 112, Thompson : Economic and social hist. of the Middle-Ages. Vol I, p. 430.

(59) Gottfried : op. cit., p. 43.

وهو راهب من طائفة الفرنسيسكان وكان معاصرا بذلك الطاعون ، يذكر أن عشرة سفن ايطاليا حملت الطاعون الى مدينة مسينا Messina الميناء الرئيسى لجزيرة صقلية سنة ١٣٤٧ م ، ومن مسينا انتقل الطاعون الى كل أنحاء جزيرة صقلية ، كما أن عدة سفن أخرى نقلته الى جنوة والبندقية وبعض الموانى الأوربية ، وسرعان ما انتشر الى المناطق الداخلية عن طريق المراكز التجارية الداخلية ، كذلك ساعد الهاربون من ويلاته على انتشاره فى كل مكان[٦٠] .

كذلك من المرجح أن صقلية لكونها احدى المراكز التجارية الهامة فى عالم البحر الأبيض المتوسط آنذاك ، قد ساعدت على انتشاره فى بقية مناطق البحر الأبيض ، حيث يرجح انتشاره فى مدن شمال افريقيا عن طريق تونس عبر كورسيكا وسردينيا ومنها الى بلاد الأندلس ، هذا الى جانب أن التجار الايطاليين كانوا هم أيضا الذين نقلوا الطاعون الى الموانى الاسلامية فى البحر الأبيض المتوسط ، حيث وصل الاسكندرية فى أواخر خريف سنة ١٣٤٧ م[٦١] . وتشير المصادر العربية الى ما يؤيد ذلك الرأى بقولها : « وقدمت مركب الى الاسكندرية، وكان فيها اثنان وثلاثون تاجرا وثلثمائة رجل ما بين بحار وعبيد ، فماتوا كلهم ولم يصل منهم غير أربعة من التجار وعبد واحد ، ونحو أربعين من البحارة فماتوا جميعا بالثغر ... »[٦٢] ثم انتشر الطاعون من الاسكندرية على ما يبدو الى الدلتا ومنها حتى وصل الى القاهرة ، ومن القاهرة انتشر حتى شمل كل مصر تقريبا ، ثم وصل الى غزة فى ربيع سنة ١٣٤٨ م والتى كانت احدى الأسواق التجارية الهامة ، وانتشر منها

---

(60) Coulton : op. cit., p. 9; Ziegler : op. cit., p. 40; Hirst : op. cit., pp. 11 — 32.

(61) Dols : op. cit., pp. 35 — 67; Gottfried : op. cit., p. 38.

(٦٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٩٩ .

الى فلسطين وبلاد الشام ، وفى أواخر سنة ١٣٤٨ م وصل الطاعون الى أنطاكية ، ومن المرجح أن يكون قد وصلها لا عن طريق فلسطين فقط ولكن من خلال اتصالها بالقسطنطينية أو قبرص • ومن مصر وفلسطين انتشر الطاعون الى الجزيرة العربية ، وفى بداية ١٣٤٩ م وصل دمشق ، وحتى أواخر سنة ١٣٤٩ م كان العالم الاسلامى كله قد اجتاحه الطاعون[٦٣] •

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن أول ضحاياه كانوا هم سكان المدن الساحلية سواء فى الشرق العربى أم الغرب الأوروبى ، ثم يليهم سكان المدن الداخلية وبخاصة ذات الأهمية الاقتصادية ، كما كانت أكبر مركز لانتقاله فى أوربا هى صقلية وجنوة والبندقية وبيزا ، ومنها انتقل الى كل أنحاء الغرب الأوروبى ، كذلك لعبت القسطنطينية دورا هاما أيضا فى نقله الى بلاد اليونان ومنها الى شرق أوربا عبر الطرق التجارية، وربما كانت القسطنطينية لها دور فى انتقال الطاعون الى بعض المدن الشامية ذات الصلات التجارية بها • أما فى الشرق العربى فقد لعبت المراكز التجارية كالقاهرة ودمشق وحلب وغزة دورا كبيرا فى نقله عبر الطرق التجارية الداخلية ، أو نتيجة لهروب بعض سكانها الى المناطق الريفية المجاورة مما ساعد على انتشار العدوى بشكل مؤثر وفعال •

أما عن العوامل المهيئة أو المساعدة على سرعة انتشاره وفتكه بمجتمعات الشرق العربى ، فان الدارس لتاريخ الشرق العربى يدرك أنه كان يعانى من عدة أزمات اقتصادية فى الفترة التى سبقت انتشار ذلك الوباء ، حيث كانت الزراعة هى أهم مقومات الحياة فى تلك الفترة ، وأن أى هزة فى موارد المياه — سواء مياه الأنهار أم الأمطار — يترتب عليها اختلال الحياة الاقتصادية كلها ، وما يترتب عليه من ارتفاع فى الأسعار ، وانعدام الأقوات ، وغالبا ما تكثر المجاعات الرهيبة ، ويزداد

---

(63) Gottfried : op. cit., pp. 38 — 41.

عدد الفقراء . كذلك تجب الاشارة الى أن الأزمات الاقتصادية لم يكن السبب فيها كلها ما ينجم عن كوارث الطبيعة ، بل كان النظام السياسى فى كثير من بلدان الشرق العربى مسئولا عن تلك الأزمات ، مثال ذلك دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز والتى قامت فى أساسها على النظام الاقطاعى ، وما يتبع ذلك من تصور للعلاقة بين الحكام والمحكومين ، وليس عن مفاهيم تلزم الحكام بضرورة الاهتمام برعاياهم، والحرص على تقديم الخدمات العامة لهم ، لا تقديمها على أساس تصور دينى يجعل منها احسانا وصدقة . هذا بالاضافة الى أنه بالرغم من معرفة الشرق ببعض الاجراءات الوقائية مثل عزل المرضى واغلاق بعض الأماكن الموبوءة — وكما سبقت الاشارة بذلك — الا أن طبيعة العصر بما يتسم به من قدرية وارتجالية قد تغلبت على أبناء الشرق العربى آنذاك[٦٤] . يذلك كانت سلسلة الحروب الخارجية والداخلية التى شنتها دولة سلاطين المماليك عاملا له أثره الفعال فى استنزاف مواردها المالية ، ومقدمة بعيدة الأثر لاحداث الغلاء وندرة الأقوات[٦٥] وما تلى ذلك من محاولة سلاطين وأمراء المماليك لتعويض فاقد الخزانة من فرض كثير من المكوس والرسوم والمقررات ، الى جانب انتشار ظاهرة لبذل والبرطلة — ونقصد بهما الرشوة — فى تولى المناصب العامة فى أنحاء البلاد ، وما استتبع ذلك من فساد فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[٦٦] بحيث انتشر الطاعون فى مجتمع كان يعانى غالبيته من سوء تلك الأحوال .

أما عن العوامل المهيئة أو المساعدة على سرعة انتشاره وتأثيره الفعال فى مجتمعات الغرب الأوروبى آنذاك ، منها أن الغرب منذ بداية

---

(٦٤) د. قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٧٤ .

(٦٥) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ، ص ١٥١ .

(٦٦) د. أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة ، ص ١٦ — ١٦٦ .

القرن الرابع عشر بوجه خاص كان قد شهد زيادة سكانية متزايدة ، بحيث عجزت الأرض عن مقابلة احتياجات تلك الزيادة الهائلة من المحاصيل الزراعية ، هذا بالرغم من احلال الزراعة محل مساحات كبيرة من الغابات ، كذلك قل الانتاج بسبب اجهاد الأرض وعدم وجود الوسائل العلمية التى يمكن استخدامها فى زيادة الانتاج أو تخليص التربة الزراعية المجهدة من الأملاح وتحسين وسائل الصرف • ويصور أحد الكتاب الوضع فى أوربا آنذاك بأن الناس هناك كانوا كمن يمشون فى بركة ماء والمياه تصل الى أفواههم ، فان أى انخفاض بسيط فى قاع البركة ، أو أى ارتفاع بسيط فى مستوى سطح الماء سوف يغرقهم • كما أن المناخ لعب دورا هاما فى زيادة التدهور الاقتصادى ، ذلك أن البرودة الشديدة أدت الى تجميد كثير من الأنهار الجليدية ، وكذلك أنهار جبال الألب مما أثر على زراعة الغلال والكروم بوجه خاص ، مما تسبب فى سلسلة من مواسم الحصاد الهزيلة ، وما نجم عن ذلك من اضطراب فى شتى نواحى الحياة • أضف الى ذلك أن الطاعون عندما انتشر هناك وجد سكانا ليس لديهم أية مقاومة له ، ممزقين بالحروب وسوء التغذية ، منهكين فى العمل للحصول على قوتهم الضرورى[٦٧] • بالاضافة الى سوء الأحوال الصحية وخاصة وأن المدن الأوروبية آنذاك بما حوته منازلها من أسرة مصنوعة من القش ، وخنازير تربى بداخلها ، وشوارع مليئة بالقاذورات ، مما جعلها بيئة صالحة لتكاثر الحشرات الناقلة للعدوى لكثير من الأمراض[٦٨] • أضف الى ذلك انعدام الخدمة الصحية فى كثير من مدن الغرب الأوروبى لندرة ما بها من مستشفيات

(67) Ziegler : op. cit., pp. 32 — 35; H. Pirenne : Economic and Social Hist., p. 193.

(68) Hirst : op. cit., pp. 128 — 161.

وأطباء[٦٩] بحيث يصدق قول أحد المؤرخين الغربيين المحـدثين فى تصويره لمجتمع تلك الفترة بأن الناس هناك قبيل حلول الطاعون كانوا فى حالة نفسية لا تسمح لهم بمقاومة مثل هذا الوباء المفاجىء ، كذلك فى حالة صحية لا تستطيع مقاومة ذلك المرض الخطير ، وقد رحب كثيرون منهم بهذا الموت الجماعى لخلاصهم مما كانوا يعانون من سوء التغذية وسوء الأحوال الاقتصادية والمـالية ونكبات الطبيعـة وكثرة الحروب والمنازعات التى عمت كل القارة الأوروبية[٧٠] .

وتجب الاشارة الى أن هذا الطاعون كانت له آثاره على شـتى جوانب الحياة فى الشرق والغرب على حد سواء ، وبخاصة النواحى الاقتصادية والاجتماعية والحربية والدينية والثقافية ، فمن الناحيـة الاقتصادية فى الشرق نلاحظ أنه تناقص عدد الفلاحين الى درك رهيب ، مما ساعد على استمرار فترة الاضطراب الاقتصادى الى سنوات عديدة بعد هذا الوباء ، بل ان الطاعون نفسه قد أعطى الفرصة لأعداد كبيرة من الفلاحين لهجرة الريف الى كثير من المدن هربا من سوء الأحوال التى عاشوها فى القرى ، وليحصلوا على أجور أعلى ، كما أن المدن بما توفر فيها من مؤسسات دينية وخيرية واجتماعية وفرت للكثيرين منهم حياة أفضل ، ورعاية صحية أحسن مما كانوا عليـه ، وظل تناقص أعـداد الفلاحين مستمرا حتى بداية القرن الخامس عشر الميلادى[٧١] . ولم تجد كثير من الأرض الزراعية من يزرعها ، مما أدى الى ارتفاع أسعار كثير من السلع ، كذلك توقفت أعمال الصيد ، وتعطلت الأسواق ، كما كان من نتيجة ارتفاع معدل الوفيات أن ندرت الأيدى العاملة ، وارتفعت

---

(69) Gottfried : op. cit., pp. 44 — 54; Ziegler : op. cit., pp. 56 — 58.

(70) Ziegler : op. cit., p. 45.

(71) Dols : op. cit., pp. 162 — 164.

أجورها ارتفاعا كبيرا بحيث غلقت دور كثير من الصناعات[٧٢] • وكان طبيعيا أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتماماتهم وألا يكـون بمقدورهم مزاولة أعمالهم اليومية ، واستغل كثير من أصحاب الصنائع فرصة الطلب المتزايد على مقرئى القرآن على الجنائز • ومغسلى الأموات وحفارى القبور والحمالين ، واتجهوا الى تلك الأعمال ، فأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا لمثل تلك الأعمال لمـا نالوه من أموال كثيرة ، وتغيرت أحوال كثير ممن عاشـوا بحيث أخذوا دورا وأمـوالا بغير استحقاق لموت مستحقيها ، فمن عاش منهم استغنى به ، وانحط قدر الذهب والفضة ، فضلا عن أنه رخص ايجار كثير من الدور لعدم وجود من يسكنها[٧٣] • كما توقفت أحوال الدولة ، واضطرت سلطنة المماليك الى تخفيض ما على الدولة من كلف ، فألغت فى الفترة التى تلت ذلك الوباء وحتى سنة ٧٥٤ هـ/١٣٥٣ م الأسمطة التى كانت تقام فى شـهر رمضان وفى العيدين ، فضلا عن تخفيض المعاليم « المرتبات » التى كانت تصرف لمباشرى الدولة ، فمنهم من خفض معلومه الى النصف أو الثلثين ، هذا الى جانب الاقلال من أعداد هؤلاء المباشرين ، فبعدما كان فى كل معاملة ستة مباشرين تم تخفيضهم الى ثلاثة[٧٤] •

ويبدو أن أثر الأزمة الاقتصادية دفع بكثير من رجال الدولة من سلاطين وكبار الأمراء الى محاولة الحصول على الأموال بأية وسيلة ، ويؤكد ذلك ما ترويه لنا كتب المعاصرين من فرضهم لكثير من الرسوم ، ومحاولة الاستيلاء على أموال الناس ، حيث وضعوا العقبات الجسام فى طريق كل وريث يطالب بحقه فى ميراث أحد والديه أو أقاربه وذلك

---

(٧٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٧٨ — ٧٨٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٠ — ٢١١ .

(٧٣) نفس المصدرين السابقين والصفحات .

(٧٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢١١ .

« حتى تعجز الورثة عن الطلب فتترك المطالبة »[٧٥] ومنهم من « كان يحتاط على التركة وان كان فيها ولد ذكر أو غيره .. »[٧٦] كذلك تعددت المصادرات ، وفرضت الاتاوات الكبيرة على التجار ، فضلا عن اجبارهم على شراء البضائع التى تطرحها عليهم الحكومة بأعلى الأسعار وهو ما عرف فى مصادر تلك الفترة بسياسة الطرح[٧٧] .

أما عن أثر الطاعون الاقتصادى فى الغرب الأوربى ، فحيث أن ذلك الطاعون فتك بغالبية الفلاحين ، لذلك كانت له نتائجه الخطيرة على الحياة الزراعية ، حيث جفت كثير من الحدائق والبساتين والحقول لكونها لم تجد من يرعاها ، وتفاقمت المشكلات الزراعية الناجمة عنه مما جعل الأمور تزداد سوءا فى كثير من المدن الأوربية ، بحيث أعلنت كثير من البيوت المالية افلاسها نتيجة الخسائر الفادحة التى نزلت بها[٧٨] . كذلك كان من نتيجة الشلل الاقتصادى الذى عم الغرب الأوروبى أن حاولت بعض الحكومات تعويض النقص فى خزانتها ، مما اضطرها الى فرض كثير من الضرائب[٧٩] . كما أن روما وكذلك جزيرة صقلية والمدن الايطالية التجارية قد تأثرت فى الفترة من ١٣٤٨ — ١٣٥٠ م اقتصاديا لعدم وفود الأعداد الكبيرة من الحجاج المسيحيين اليها ، مما اضطر البابا الى أن يذعن لضغوط أهل روما وقبرص وربما المدن الايطالية ويعلن أن عام ١٣٥٠ م عاما مقدسا ، والذى جرت العادة بأن يحدث مرة كل أول قرن ، ويمنح فيه البابا الغفران لكل من يزور روما[٨٠] . كذلك حدث تغير فى مصدر تجارة الرقيق بالنسبة للمدن

---

(٧٥) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣٧—٣٨ .

(٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٣١ .

(٧٧) د. قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى ، ص ٧٥ .

(78) Gottfried : op. cit., p. 38; Ziegler b op. cit., p. 44.

(79) John B. Hennerman : « The Black Death And Royal Taxo tion » Speculum, Vol. XI III, p. 420.

(80) Ziegler : op. cit., p. 60.

الايطالية ، فبعد أن تناقصت أعداد الرقيق الذين كانوا يجلبونهم من القوقاز وحول البحر الأسود بسبب تفشي الطاعون هناك ، فقد أخذت هذه المدن الايطالية فى البحث عن مورد جديد ومناطق جديدة للحصول منها على الرقيق ، فاتجه هؤلاء الايطاليون الى أفريقيا وجنوبى الصحراء الكبرى ، وهى منطقة خلت من الطاعون ، والتى كان يحصل منها التجار المسلمون على الرقيق ، ومن هنا زاد اهتمام الأوروبيين بأفريقيا ، وبدأت تجارتهم فى الرقيق الأسود(٨١) .

ونتيجة لارتفاع نسبة الوفيات ونقص العمالة ، فقد ارتفعت الأجور ، وفى محاولة لتعويض هذا النقص فقد اضطرت كثير من نقابات الحرفيين — فى انجلترا على سبيل المثال — أن تختصر طول الفترة التى كانت تشترطها للممتهن حتى يصبح عضوا حرفيا ، ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى وجود حرفيين لا يتقنون حرفتهم بالدرجة الكافية ، كما أن كثيرا من النقابات وضعت شروطا جديدة للانضمام اليها ، ربما كان الهدف منها اجتذاب أكبر قدر من الأفراد اليها ، وبمرور الوقت انخفضت مهارة هؤلاء الحرفيين جدا وكذلك مستوى أدائهم مما ساعد على تدهور كثير من الحرف . كما ترتب على نقص الأيدى العاملة توقف استخراج المعادن بحيث أن كمية المعادن التى تم استخراجها وقدمت لسك النقود سنة ١٣٥١ م كانت أقل من خمس الكمية التى تم استخراجها قبل حدوث هذا الوباء . كذلك حدث تطور هام فى نظام الاقطاع والذى اعتمد فى زراعة الأرض على الأقنان ، فمع التدهور فى أعداد هؤلاء الأقنان ونقص الأيدى العاملة ، فقد اضطر كثير من السادة النبلاء الى دفع أجور الى كثير من هؤلاء الأقنان وتحويلهم الى فلاحين أحرار بالتدريج(٨٢) .

---

(81) Gottfried : op. cit., pp., 43 — 44.

(82) Ibid : op. cit., pp. 60 — 61.

وعن التغيرات الاجتماعية التى أحدثها الطاعون فى الشرق ، فهى كثيرة وتزخر بها كتب المعاصرين ، والحقيقة أن هذه التغيرات ترجع بالدرجة الأولى الى التدهور الاقتصادى الذى شهدته البلاد أثناء فترة الطاعون والذى عانت منه حتى أواخر القرن الرابع عشر ، نذكر على سبيل المثال ما حدث من تغير فى ملابس كثير من النساء فى دولة سلاطين المماليك حيث صدرت التعليمات عقب ذلك الطاعون من السلطات الحاكمة بألا تلبس النساء شيئا من اللباسات والثياب الثمينة ، والتى كانت تستورد اما من البندقية أو من العراق ، كذلك نصت هذه التعليمات على ابطال ما كانت النساء يلبسنه فى أرجلهن من أخفاف وسراميز غالية الثمن[٨٣] . كما يذكر لنا المقريزى فى حديثه عن سوق الشماعين المخصص لبيع الشموع ، وصفا رائعا لأنواع الاضاءة التى كانت تتم فى القاهرة فى المناسبات المختلفة مثل شهر رمضان ومواكب ركوب الصبيان لصلاة التراويح ، وفى عيد الغطاس ، وفى حديثه عن سوق الدجاجين يبين لنا مدى عناية الناس باقتناء الطيور المختلفة مثل القمارى والهزاز والشحرور والسمان ، ومدى تكالب الناس عليها بحيث بلغ ثمن الواحد منها ألف درهم ، وذلك لتنافس الناس فيها لاعجابهم بأصواتها ، كذلك فى حديثه عن سوق الجوخيين والذى كان مخصصا لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج ، يذكر أن الناس كانوا يستهجنون لبس الجوخ فلما غلت الأسعار دعت الضرورة أهل مصر الى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه وصار معظم الناس يلبسون الجوخ ، كذلك فى حديثه عن سوق الحلاويين يذكر أنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها تسمى العلاليق، تشترى للاطفال — كما يحدث فى عصرنا الحاضر فى المواسم والموالد — فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله ولأولاده وذلك فى موسم شهر رجب ونصف شعبان وشهر رمضان وعيد

---

(٨٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٢٣ ، المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٥٠ — ٨١١ .

الفطر ، كذلك فى حديثه عن سوق العنبريين وهو المخصص لبيع العنبر الذى كان يجلب من الشرق الأقصى ، يذكر أنه لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت الا ولها قلادة من عنبر، كذلك كان يتخذ منه المخاد والستور وغيرها ، أما فى حديثه عن سوق الكفتيين حيث تطعم الأوانى بالفضة والذهب فانه يذكر لنا مدى حرص الناس على اقتناء الأوانى النحاسية المطعمة أو المكفتة بالذهب والفضة بحيث لا تكاد دار تخلو فى مصر والقاهرة من عدة قطع من نحاس مكفت ، ولابد أن يكون فى « شوار العروس » دكة نحاس مكفت ، وست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وغير ذلك من الأوانى المنزلية مثل القنـــاديل وأوانى البهار والابريق والمبخرة ، حيث بلغت قيمة الدكة النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهب ، الا أنه « قد تلاشى الحال فى جميع ما قلنـــا لفقر الناس وعجزهم ..»[٨٤] . كذلك كان من نتيجة تدهور الأحـــوال الاقتصادية التى نجمت عن ذلك الطاعون أن تخلت أكثرية نساء مصر عن لبس الذهب والفضة والجواهر وكذلك الحرير[٨٥] . هذا بالاضافة الى ما حدث من خلل فى التركيبة السكانية ، والتى تشير اليها كثير من المصادر المعاصرة ، بحيث حصل أرباب الحرف والصنائع من الخياطين والأساكفة والمنادين على اقطاعات الجند ،وركبوا الخيول ولبســوا ملابس الجند ، كذلك دخل كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية ضمن أجناد الجيش وحصلوا على الاقطاعات ، كذلك كان من نتيجة ذلك الوباء أن بطلت الأفراح والأعراس من بين الناس ، فلم يعرف أن أحدا عمل فرحا فى مدة ذلك الوباء ، ولا سمع صوت غناء[٨٦] .

---

(٨٤) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٥—١٠٥ .

(٨٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

(٨٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٨٣٠ — ٨٨٣ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥١ .

أما فى الغرب الأوروبى فقد حدثت بعض التغيرات المشابهة لما حدث فى الشرق العربى ، لذلك سنقصر حديثنا على بعض جوانب أخرى من الجوانب الاجتماعية ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما حدث من تغير فى عادات دفن الموتى والتى يذكرها لنا « بوكاشيو » — وقد كان معاصرا لذلك الوباء — من أنه جرت العادة فى الغرب قبل الطاعون أن تتجمع النساء من أقارب الميت مع جيرانهم ويأخذن فى البكاء والعويل ، كما أن بعضهن كن يتجمعن أمام منزل المتوفى مع رجال الدين، ثم يتم حمل الميت على الأكتاف ، وتتقدمه مجموعة من الشموع المخصصة لموكب الدفن والأناشيد الى الكنيسة التى اختارها لتكون مثواه ، فلما انتشر الطاعون لم تعد هذه العادة معروفة ، بل لجأ الناس الى حفر حفر كبيرة يلقون فيها جثث الموتى ويغطونها بالتراب دون حضور أحد القساوسة أو اقامة التراتيل الخاصة ، بل أدى الأمر الى أن يقوم كثير من الجيران بسحب جثث الموتى من المنازل ، وأن يلقوا بها فى الشوارع أمام أبواب المنازل ليلا على أمل أن يراها أحد المارة فى الصباح وبخاصة من رجال الدين(٨٧) . كما يذكر لنا أيضا أنه نتيجة لهجر الناس مرضاهم ، حيث كان يفر المرء من زوجته والزوجة من زوجها والأب من ابنه ، والأبناء من الآباء والأمهات ، مع ندرة وجود الخدم ، فقد استحدثت عادة لم تكن معروفة فى الغرب الأوروبى من قبل ، ذلك أن أى امرأة مهما كان وضعها لم تكن تشعر بحرج أو تردد فى اتخاذ أحد الرجال لخدمتها صغيرا كان أم كبيرا ، والذى كانت تضطر دون حرج أن يطلع عليها وعلى جسدها، مما ساعد على تفشى كثير من الأمراض الاجتماعية منذ ذلك الحين ، فضلا عما نتج عنه من سوء العلاقات الأسرية ، وبخاصة أن الأقارب عندما كانوا يخدمون أحد مرضاهم فانما

---

(87) Giovani Boccaccio : The Decameron. p. XXVIII; Coulton : op. cit., p. 17; Gottfried : op. cit., p. 45.

كانوا يعاملونه مثلما يعاملون القطط والكلاب آنذاك بوضع الأكل بجوار سريره والابتعاد عنه فورا[٨٨] .

كذلك كان من نتيجة انتشار الطاعون فى أوروبا أن ازدادت كراهية اليهود لدى أبناء الغرب الأوروبى ، وذلك بسبب الشائعات التى سرت بأن اليهود قد سمموا مياه العيون والآبار ، وعلى هذا الأساس شهدت كثير من مدن الغرب كثيرا من ألوان اضطهاد اليهود واحراقهم ، فضلا عن محاولة رغام أطفالهم على اعتناق المسيحية ، بحيث فضل كثير من اليهود القاء أولادهم فى النار على أن يتم تعميدهم . كما استولى كثيرون من أبناء الغرب الأوروبى على ممتلكات وثروات اليهود ، بالرغم من قيام البابا « كليمنت السادس » بالاعلان عن براءة اليهود مما نسب اليهم ، كذلك قام بعض اليهود بشراء حياتهم بدفع مبالغ كبيرة من المال لبعض الأمراء والملوك نظير حمايتهم من تلك الموجة الموجهة ضدهم[٨٩] على عكس اليهود الذين عاشوا فى بلاد الأندلس وفى بقية الشرق الاسلامى ، والذين لقوا معاملة أفضل بكثير من قبل الحكام المسلمين ، علما بأن فكرة قيام اليهود بتسميم مياه الآبار ومجارى الأنهار والعيون فكرة قديمة ترجع الى بداية عصر الحروب الصليبية ، وذلك لما لقيه اليهود أثناء تلك الفترة من اضطهاد[٩٠] .

كذلك حدث تناقض كبير فى سلوكيات الأشخاص فى الغرب الأوروبى ، فالذين أدركوا أن الحياة مهما طال أجلها لابد منتهية ، أطلقوا العنان لأنفسهم للاستمتاع بكل ما لذ وطاب لهم ، بينما البعض الآخر كرسوا أنفسهم ووقتهم للخلاص من ذنوبهم وآثامهم ، لذلك كنت ترى بعض الشوارع تزدحم فيها الكنائس بالناس ، بينما شوارع أخرى تزخر

---

(88) Coulton : op. cit., pp. 16 — 56; Hirst : op. cit., p. 17.

(89) Hirst : op. cit., p. 18; Gottfried : op. cit., pp. 73 — 74.

(90) Gottfried : op. cit., p. 52; Margolis : AHist. of The Jewish People. p. 404.

بالمستمتعين بكل مباهج الحياة وشرورها[٩١] •ونتيجة لهذا التناقض ظهرت من جديد جماعات ممن يضربون أنفسهم بالسياط تقربا الى الله ، وهى ظاهرة لم تكن جديدة على المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى، اذ يرجع ظهورها الى أواخر القرن العاشر الميلادى ، مع اقتراب الذكرى الألفية أو العصر الألفى وهو الذى يعتقدون أنه سيملك السيد المسيح الأرض مؤذنا بعصر جديد ، وانتشرت هذه الظاهرة بشكل خطير وواسع فى كل من ألمانيا وفرنسا والبلدان الوطيئة وشبه جزيرة أيبيريا والمجر ، وهؤلاء كانوا يقومون بجلد أنفسهم بالسياط ، كما يضربون أنفسهم عند الأكتاف والأذرع بقطع من الحديد وبحماسة منقطعة النظير حتى ينزف منها الدم[٩٢] •

كما أن الأقليات الحاكمة التى قدر لها البقاء فى مجتمعات الغرب الأوربى آنذاك ، قد أصبحت أكثر ثروة مما كانت عليه من قبل ، فضلا عن تركز السلطات فى أيديها ، بحيث غدت وكأنها قد أعيد بناؤها وبتركيز أكبر عما كان قبل حدوث ذلك الطاعون ، هذا بالاضافة الى أنه نجم عن ذلك الطاعون ظهور طبقة جديدة من الأثرياء ، والتى كان لديها الرغبة فى المشاركة فى حكومات المدن ، وشعر أفراد هذه الطبقة الجديدة أن مواردهم المالية تكفل لهم هذا الحق ، الا أن الأقليات الحاكمة عملت كل ما فى وسعها على أن تكبح جماع أبناء هذه الطبقة ، وتحول بينهم وبين ما كانوا يسعون اليه ، بحيث وضعت القوانين التى تمنع من مشاركتهم فى الحكم ، هذا فى الوقت الذى ازداد فيه الفقراء فقرا وهم الذين انتشر الوباء بينهم بشكل مؤثر ، وبذلك اتسعت الفجوة بينهم وبين جيرانهم من المحظوظين والذين ازدادوا ثراء ، وأصبحت هذه

---

(91) Hirst : op. cit., p. 17.

(92) Gottfried : op. cit., pp. 69 — 73; Ziegler : op. cit., pp. 87 — 110.

الفجوة أكثر اتســـاعا عما قبل ، مما ساعد على خلق ظروف اجتماعية كان لها أثرها المباشر فى المجتمع الأوربى فيما بعد[٩٣] .

أما عن الآثار الحربية والعسكرية فى الشرق العربى ، فقد كان هذا الطاعون من بين العوامل الرئيسية التى ساعدت على اضعاف الجيش المملوكى على وجه الخصوص ، ذلك أن البلاد التى كان المماليك يجلبون منها الى الشرق مثل سهوب روسيا والقوقاز قد شهدت تناقصا مستمرا فى عدد سكانها لتكرار حدوث الطواعين بها ، يضاف الى ذلك سوء الأحوال الاقتصادية التى أخذت تعانى منها البلاد بسبب هذا الوباء ، والتى زاد من حدتها استنزاف الموارد المالية لدولة سلاطين المماليك فى صد أخطار المغول ، ولطرد البقايا الصليبية التى ظلت جاثمة على بلاد الشـــام ، فضلا عن سياسة الحصار الاقتصادى التى فرضها الغرب الأوربى على دولة سلاطين المماليك ، والتى انتهت بنجاح البرتغاليين فى الوصول الى بلدان الشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، والذى يسمى خطأ باسم الكشوف الجغرافية [٩٤] . وليس أدل عـــلى تناقص أعداد المماليك مما تشير اليه المصادر المعاصرة من أنه « فتـــك الطاعون بالمماليك والجوارى والغرباء ، وخلت طباق القلعة من المماليك السلطانية بسبب موتهم » [٩٥] وما يشير اليه المقريزى فى ذلك الطاعون من قول : « وأما المماليك فانهااليوم قليل عددها ، بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية ، لا تكاد تبلغ خمسة آلاف فارس ، يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها ..» هذا بينما يروى أنه فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، أى قبل انتشار الطاعون بحوالى سبع ســـنوات فقط « فانها بلغت على مارأيته فى جرائد ديوان الجيش ،

---

(93) Ziegler : op. cit., pp. 59 — 60.

(٩٤) د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٥١ ،
David Neustadt : « The Plague and its Effects upon: The Mamluk Army » J.R.A..S. 1946, pp. 67 — 68.

(٩٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٦٥٥ ، ج ٦ ، ص ٧٥٩ .

بأوراق الروك الناصرى — أربعة وعشرين ألف فارس • ثم مازالت تنقص حتى صارت — مع قلة عدتها — سواء منها الألف والواحد ، فانها لا تنفع ولاتدفع ••• » (٩٦) •

ويبدو أن تأثير ذلك الطاعون كان أكبر فى المماليك السلطانية وبخاصة صغار السن ، والذين كانوا ينزلون فى الطباق بالقلعة ويدرسون النظم العسكرية الى جانب دراستهم الدينية واللغوية ، وذلك راجع الى أنهم لم يكونوا قد تأقلموا بعد على جو البلاد ، فضلا عن أنهم لم يكونوا قد اكتسبوا المناعة الكافية ، الى جانب أنهم لم يحاولوا الفرار من العاصمة أثناء تفشى الطاعون بها ، خوفا من أن يستولى خصومهم على مالهم من سطوة (٩٧) • كذلك كان من أبرز مظاهر الخلل فى النظم الحربية لدى المماليك تصرف الأمراء والأجناد فى اقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة ، الأمر الذى أدى الى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش ، ولما كان الجيش فى ذلك العصر يعتمد فى نظامه على الاقطاع ، فقد أدى فساد النظم الاقطاعية الى ضعف الجيش وانهيار دعائمه (٩٨) •

ومن الطبيعى أن يكون لهذا الطاعون أثره العسكري بحيث يمنع ارسال حملات حربية لفض الفتن والمنازعات ، وبخاصة أثناء انتشار الطاعون خوفا من الموت أثناء الزحف ، كما يمكننا القول أن خلال العشر سنوات التى تلت ذلك الطاعون لم تقم أية عمليات عسكرية رئيسية من عاصمة سلطنة المماليك ، وهذه حقيقة يمكن اعتبارها مؤشرا على

---

(٩٦) الخطط ، جـ ١ ، ص ٩٤ .

(97) David Neustadt : op. cit., pp. 71 — 72, Dols : op. cit., p. 190

(٩٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٨٥ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٥١ ، د. الباز العرينى : الاقطاع الحربى بمصر ، ص ٢٢ .

انهيار قوة المماليك الحربية من جراء ذلك الطاعون [٩٩] . كذلك كان لهذا أثره فى الحرب بين مسلمى شمال أفريقيا وبلاد الأندلس ضد المسيحيين الغربيين بقيادة الملك ألفونسو السادس بالرغم من ضعف القوى المسيحية بالنسبة لهم ، وقد دفعهم الطاعون الى التقهقر الى شمال أفريقيا وعدم استكمال حروبهم [١٠٠] .

أما عن تلك الآثار الحربية والعسكرية فى الغرب الأوربى ، فيمكننا القول أن فترة انتشار الطاعون من ١٣٤٧ — ١٣٥١م كانت بمثابة كارثة كبرى عمت أوربا وأصابت جميع بلدانها بنقص فى الأرواح والأموال، زيادة على ارتباك الأحوال الاقتصادية، مما تعذر معه استئناف الحرب بين انجلترا وفرنسا فى ظل تلك الظروف وهى التى عرفت بحرب المائة عام « ١٣٣٧ — ١٤٥٣م » وهو الاسم الذى يطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين انجلترا وفرنسا ، والذى نشبت منذ عام ١٠٦٦م عندما امتلك أمراء نورمنديا انجلترا وأصبحت ممتلكاتهم موزعة على جانبى المانش ، أى فى كل من فرنسا ذاتها ثم انجلترا [١٠١] كما أنه نتيجة للخسائر الفادحة فى الأرواح التى تحملتها المدن الأوربية وبخاصة فى فرنسا ، فلم تستطع كثير من المدن الفرنسية تقديم المساعدات الحربية التى وعدت بها ملك فرنسا فيليب السادس (١٣٢٨ — ١٣٥٠) عقب وأثناء انتشار الطاعون ، وكل ما استطاعت تقديمه عقب الوباء هو حوالى ٢٦٪ مما سبق ووعدت به ، كذلك اضطرت كثير من المدن

---

(99) Muir : The Mamluk or slave Dynasty of Egypt. pp. 94 — 97.

(١٠٠) المقريزى : السلوك ، ج ٣ قسم ٢ ، ص ٧٧٧ ،
Dols : op. cit. p. 192.

(١٠١) د. سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٠٥ — ٥١٠ .

الفرنسية الى تخفيض أعداد المحاربين الذين وعـدت بتقديمهم[١٠٢] . هذا بالاضافة الى أنه كان لهذا الوباء أثره المباشر على مجريات الحرب الدائرة بين الصرب والأتراك العثمانيين [١٠٣] . كذلك كان السـبب الرئيسى فى انهاء الرغبة فى ارسال حملة صليبية من الغرب الأوربى تقلع من قبرص ضد الأتراك العثمانيين سنة ١٣٥١م [١٠٤] .

(102) John B. Henner man : op. cit., pp. 414 — 420.

(103) Gottfried : op. cit., p. 38.

(104) Hill : A. Hist. of Cyprus, Vol.I, pp. 301 — 307.

احصائية عن عدد سكان بعض المدن فى الشرق العربى الأوربى تبين عدد سكان كل مدينة ونسبة الوفيات بها أثناء الطاعون مأخوذة من كتاب :

Gottfied The Black Death pp. 38 — 64.

اسم المدينة	عدد سكانها قبل الطاعون	النسبة المئوية لعدد من ماتوا بها
القاهرة	٥٠٠ر٠٠٠ نسمة	٤٠٪
أنطاكية	٤٠ر٠٠٠ نسمة	٥٠٪
دمشق	١٠٠ر٠٠٠ نسمة	٣٨ — ٥٠٪
جنوة	١٠٠ر٠٠٠ نسمة	٣٠ — ٤٠٪
بيزه	٤٠ر٠٠٠ نسمة	٣٠ — ٤٠٪
بستويا Pistoia	٣٠ر٠٠٠ نسمة	٧٠٪
أورفايتو	١٢ر٠٠٠ — ١٥ر٠٠٠ نسمة	٥٠٪
سينا Siena	٦٠ر٠٠٠ نسمة	٧٠٪
فلورنسا	٨٠ر٠٠٠ نسمة	٧٠٪
البندقية	١٢٠ر٠٠٠ — ١٥٠ر٠٠٠ نسمة	٦٠٪
ميلان	١٠٠ر٠٠٠ نسمة	١٥٪
مرسيليا	٥٠ر٠٠٠ نسمة	٧٠٪
ناربون	٢٥ر٠٠٠ — ٣٠ر٠٠٠ نسمة	٤٠٪
أفينون	٢٠ر٠٠٠ — ٥٠ر٠٠٠ نسمة	أكثر من ٥٠٪
برشلونه	٥٠ر٠٠٠ نسمة	٣٠٪
فالنسيا	٣٠ر٠٠٠ نسمة	٤٠٪
باريس	٨٠ر٠٠٠ — ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة	٣٥٪
بريستول	١٠ر٠٠٠ — ١٢ر٠٠٠ نسمة	٣٥٪
لندن	٥٠ر٠٠٠ نسمة	٣٥٪

من هذا الجدول يتضح لنا أن معدل الوفيات وصل الى مابين ٤٠٪ و ٥٠٪ من سكان المدن المذكورة ، وهى نسبة لا يستهان بها ، ولا شك أن لها آثارها الفعالة فى شتى مجالات الحياة سواء فى الشرق أم الغرب .

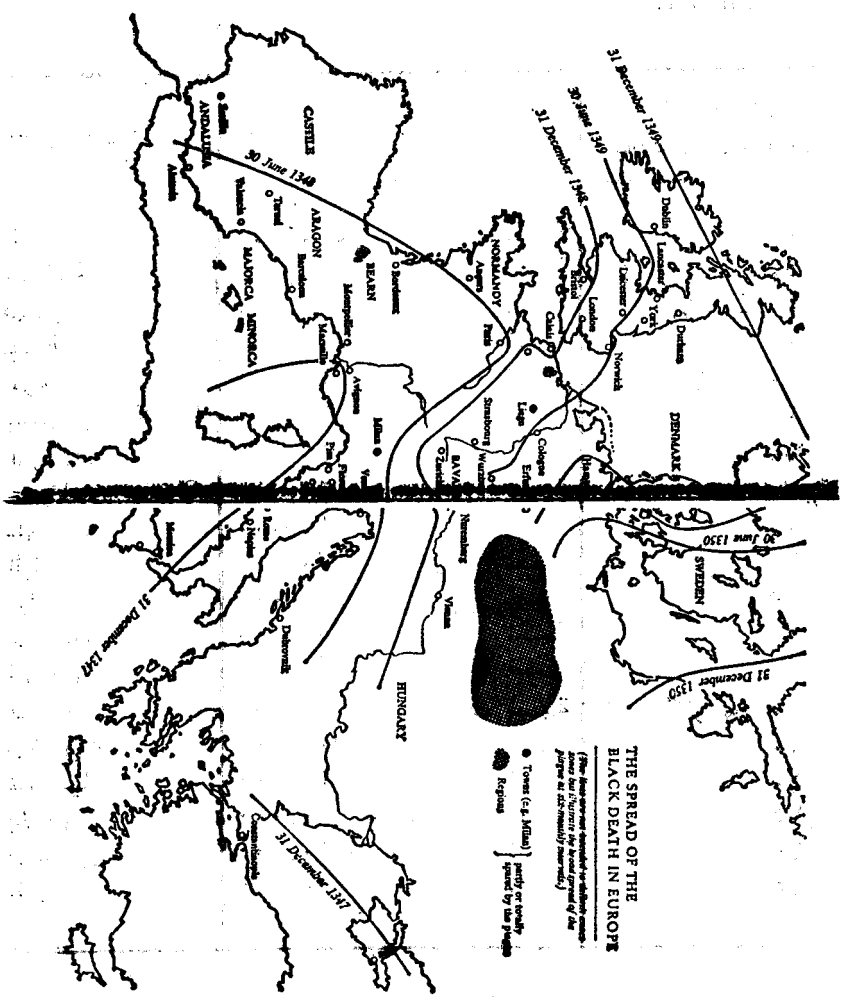
THE SPREAD OF THE BLACK DEATH IN EUROPE
Towns (e.g. Milan)
Regions
partly or wholly spared by the plague
SWEDEN
DENMARK
HUNGARY
CASTILE
ARAGON
ANDALUSIA
MAJORCA
MINORCA
BEARN
NORMANDY
BAVARIA
30 June 1349
31 December 1348
31 December 1349
30 June 1350
31 December 1350
31 December 1347

قائمة المصادر والمراجع

١ ــ أحمد عبد الرازق « دكتور » : البذل والبرطلة ــ القاهرة ١٩٧٩م.

٢ ــ الباز العرينى « دكتور » : الأقطاع الحربى بمصر القاهرة ١٩٦٠م

٣ ــ البخارى : صحيح البخارى أجزاء ٣ ، ٤ طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابى الحلبى .

٤ ــ ابن بطوطة : (ت ٧٧٩هـ) : الرحلة نشر دار صادر بيروت١٩٦٤م

٥ ــ ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ) مقدمة ابن خلدون ــ طبع المطبعة الاميرية بمصر ١٣٢١هـ .

٦ ــ سعيد عاشور « دكتور » : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥م .

ــــــــــــــ : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦١ .

٧ ــ السيوطى : « جلال الدين بن عبد الرحمن ت ٩١١ هـ » ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ، نشر كريمر ، فيينا ١٨٨٠ م .

٨ ــ عنان « محمد عبد الله » : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ، القاهرة ١٩٦٩م .

٩ ــ قاسم عبده قاسم « دكتور » : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ــ القاهرة ١٩٧٨م .

ــــــــــــــ : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى القاهرة ١٩٧٩ .

١٠ ــ ابن الجوزية « أبو عبد اله محمد بن أبى بكر ت ٧٥١ هـ »
: الطب النبوى طبع بيروت ١٩٨٤م
ــــــــــــــ : الداء و الدواء طبع القاهرة ١٩٧٨م •
١١ ــ ابن كثير : « عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤ هـ » البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، القاهرة ١٩٣٩م •
١٢ ــ أبو الندا : « الملك المؤيد ت ٧٣٢ هـ » المختصر فى أخبار البشر، جـ٣ بيروت ١٩٦٨م •
١٣ ــ المقريزى « تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ » :
ــــــــــــــ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ٣ ، قسم ٢ تحقيق د• سعيد عاشور ــ القاهرة ١٩٧٠م •
ــــــــــــــ : اغاثة الأمة بكشف الغمة • نشر د• جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥٦هـ •
ــــــــــــــ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ جـ ٢ طبعة بولاق ١٢٧٠هـ •
١٤ ــ ابن تغرى بردى « جمال الدين يوسف أبو المحاسن ت ٨٧٤هـ » : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة أجزاء ٦ ، ١٠ ــ القاهرة ١٩٧٢م •
١٥ ــ ابن الوردى « زين الدين عمر ت ٧٥٠ هـ » تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ، القاهرة ١٨٦٨م •

المراجع الأجنبية

1. Abla EL Mishad : Manual of Practical Microbi ology Cairo 1974.
2. Campbell : The Black Death and Men of hearning New york 1931.
3. Caulton : The Black Dealh, London 1929.
4. David Neustadt : « The Plague and its Effects upon The Mamluk Army » J.R.A.S. 1946.
5. Dols, Michael : The Black Death In The MiddleEast, Princeton University Press, New Jersey 1977.
6. Giovani Boccaccio : The Decameron — London 1905
7. Gottfried : The Back Dealh Natural and Human Disaster in Medieval Europe, London 1983.
8. Hill : A. Histouy of Cyprus, Vol. I London 1960.
9. Hirst : The Conquest of Plague, oxford 1953.
10. John B. Hennerman : « The Black Death And Royal Taxation » Speculum, Vol. XLIII, 1968.
11. Margols : A. Histoy of The Jewish People. A. Temple Book 1977.
12. Muir : The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1895.
13. Lopez : The Commercial Revol ution of the Middle Ages Cambridge 1976.
14. Thomposon : Economic and Social hisr. of the Middle Ages London 1970.
15. Yehia EL Batawi : Manual of Practical Microbial infection of Man Part II, Cairo 1981.
16. Ziegler : The Black Death, Penguin Book New Zealand 1975.